وقفة مع الفراء النحوي

م.م. تغريد محمد صالح

كلية البنات/ الجامعة الإسلامية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد...

يعد الفراء من علماء اللغة المبرزين، واماما لامعا من ائمتها المشهورين، ولكن على الرغم من كثرة البحوث التي تناولته بالدراسة، وردت روايات وأقوال هي تهم ملفقة عليه أو ادعاءات غير صحيحة, مما استوجب ان احقق هذه المسألة، إضافة إلى ذلك ارتأيت ان اذكر جزءا يسيرا من سيرة الفراء، وذلك لكثرة الدراسات حوله.

وأخيرا... أرجو أن أكون قد وفقت لأعداد هذا البحث، ومن الله التوفيق، انه نعم المولى ونعم النصير...

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أبو زكريا الفرّاء

سيرته[١]

هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الملقَّب بـ(الفرَّاء). وإنَّما قيل له (فرَّاء)، ولم يكن يعمل الفراء ولا يبيعها، لأنّه كان يفري الكلام[٢]، أَيْ: يعالجه ويصلحه ويجيده ويأتي بالعجب[٣]. وقد أفصح أبو بكر الانباري عن معنى هذا اللقب فقال:

وبعض أصحابنا يقول: إنَّما سُمِّي الفرَّاء (فرّاء) لأنَّه كان يحسن نظم المسائل، فَشُبِّه بالخارز الذي يخرز الأديم، وما عرف ببيع الفِراء ولا شرائُها قط [٤].

ولد الفرّاء في الكوفة (١٤٤هـ)، ونشأ بها نشأته الأولى، وظلّ فيها حتى ظهرت مواهبه وبزّ أقرانه[٥]، واستحثَّه الرؤاسي للذِهاب إلى بغداد.

تتلمذ الفرَّاء لشيوخ، من أشهرهم:

يونس بن حبيب (١٨٢هـ) وهو إمام نحاة البصرة في عصره، ومرجع الأدباء والنحويين في المشكلات، وكانت حلقته بالبصرة يقصدها طلبة العربية وفصحاء الأعراب والبادية. وكذلك من شيوخه الكسائي المتوفى سنة (١٨٩هـ) وكان أحد أئمة القراءات السبعة، وأقرأ القُرَّاء ببغداد، ثم اختار لنفسه قراءة فأقرأ بها الناس، وهو إمام الكوفيين في النَّحو واللغة، أخذ عنه الفرّاء. قال الفراء في معانيه:

أنشدني الكسائي:

إنَّ الخلافـــةَ بَغْـــدَهُمْ لذميمـــةٌ وَخلائـــفُ طـــرف لممَّـــا أَحقـــرُ [٦]

من شيوخه أيضا الرؤاسي المتوفى سنة (١٩٠هـ) وكان أستاذ أهل الكوفة في النحو، قال أبو محمد بن درستويه: زعم أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب أنّ أول من وضع من الكوفيين كتاباً في النحو: الرؤاسي. وتتلمذ على شيوخ آخرين.

وتتلمذ له كثيرون، نخصُّ بالذكر منهم اثنين، هما:

١- محمد بن الجهم السِّمّريّ

٢- سلمة بن عاصم

عقيدته:

لم يتفق المترجمون للفرَّاء على تعيين عقيدته أو مذهبه الكلامي، إذ يرى قسم من القدماء انّه يميل إلى الاعتزال، منهم: ياقوت الحموي (٦٢٦هـ) الذي يقول: وكان الفرَّاء يميل إلى الاعتزال، وكان يتفلسف في تصانيفه، ويستعمل فيها ألفاظ الفلاسفة [٧].

والقفطي (ت٦٤٦هـ) الذي يقول: وكان الفرّاء يميل إلى الاعتزال [٨]. والسيوطي (٩١١هـ) الذي يقول: كان يحب الكلام، ويميل إلى الاعتزال، وكان يتفلسف في تصانيفه، ويسلك ألفاظ الفلاسفة [٩]. ويرى قسم آخر انّه من أهل السُّنَّة، منهم: الأزهري (٣٧٠هـ) إذ قال: وكان من أهل السُّنَّة، ومذاهبه في التفسير حسنة [١٠]. وقسم ثالث يحاولون جاهدين أن يستخلصوه لأنفسهم فيجعلوه من أعيان الشيعة، وينفوا عنه الاعتزال [١١].

أمَّا المحدثون فيكادون يجمعون على: أنّ الفرّاء يتفلسف في تصانيفه، ويميل إلى الاعتزال، ومنهم أحمد أمين[١٢].

وعدُّه زهدي جار الله من مشهوري المعتزلة، وسلكهُ في طائفة المثقفين المتزهدين، على عادة الكثيرين من أهل الاعتزال[١٣]. وقد قسَّم الأنصاري آراء الباحثين في عقيدة الفرّاء، من قدامى ومحدثين، على ثلاثة أقسام:

١- رأي ينصّ صراحة على أنه من أهل السُّنَّة، ويسكت عمّا عداه، فلا يثبت الاعتزال ولا ينفيه.

٢- ورأي غالب ينصُّ صراحة على أنّه كان يميل إلى الاعتزال، ويحبّ الكلام، ويسلك مذاهب الفلاسفة.

٣- أما الرأي الثالث فينفي عنه الاعتزال نفياً صريحاً[١٤].

وانتهى الأنصاري، بعد عرضه تلك الآراء، إلى القول: إنّ أقرب الأقوال إلى الصَّحة هو القول الوسط، إذ إنّه يتفق مع الخطّ الرئيس لشخصية الفرّاء، وهو التحرر الذي يرتكز على أَساس من السلفية الصالحة [١٥].

مكانته العلمية والاجتماعية

يُعدُّ الفرّاء من علماء العربية المبّرزيْن، وإماماً لامعاً من أئمتها المشهورين، إذ كان واسع الثقافة، متعدِّد الجوانب، ولا عجب فقد تتلمذ لأعلام عصره في اللغة، والنحو، والأدب، والقراءة، ونال تقدير العلماء، وحاز على إعجاب الجميع، لما تركه من ثروة لغوية ونحوية، كان لها أبلغ الأثر وعظيم المنزلة في نفوس معاصريه، فضلاً عن المنزلة الرفيعة لدى الخلفاء، حتى كان مؤدِّباً لأولادهم، فقد اتصل بالرشيد، ثم بالمأمون من بعده[١٦]. وأصبحت صلة الفرّاء بالمأمون وثيقة حميمة، وكانت بداية هذا الاتصال عن طريق ثمامة بن الأشرس، إذ حكى أبو العباس ثعلب، عن ابن نجدة، قال لمّا تصدّى أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء للاتصال بالمأمون، كان يتردّد إلى الباب، فلمّا كان ذات يوم بالباب، جاء ثمامة بن الأشرس المتكلم المشهور، قال: فرأيت صورة أديب وأبهة أدب، فجلست إليه، وفاتشته عن اللغة فوجدته بحراً، وعن النحو فشاهدته نسيج وحده، وعن الفقه فوجدته فقيهاً عارفاً باختلاف القوم، وفي النجوم ماهراً، وبالطِّبِّ خبيراً، وبأيّام العرب وأخبارها وأشعارها حاذقاً، فقلت له: (مَن تكون وما أظنك إلاّ الفرّاء؟)، فقال: (أنا هو)، قال: فدخلت، فأعلمت أمير المؤمنين بمكانه، فاستحضره، وكان سبب اتصاله به [١٧]. وقال أبو بريدة الوضاحي: أمر أمير المؤمنين المأمون الفرّاءَ أن يؤلِّف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب، فأمر أن تفرد له حجرة من حُجر الدار، ووكل بها جواري وخدماً للقيام بما يحتاج إليه، حتى لا يتعلَّق قلبه ولا تتشوق نفسه إلى شيء، حتى إنّهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلاة، وصيّر له الورّاقين، وألزمهُ الأمناء والمنفقين، فكان الورّاقون يكتبون، حتى صنّف كتاب (الحدود)، وأمر المأمون بكتبه في الخزائن [١٨]. ودليل على صلة الفرّاء بالمأمون، ومكانته عنده، أنّه قد وكّلَ الفرّاء يلقِّن ابنيه النَّحو، فلمّا كان يوماً أراد الفرّاء أن ينهض إلى بعض حوائجه، فابتدرا إلى نعل الفرّاء يقدّمانه له، فتنازعا أيهما يقدّمهُ، ثم اصطلحا على أن يقدم كلّ واحد منهما فرداً،

فقدماها وكان المأمون له على كل (شيء) صاحب خبر، فرُفع إليه ذلك الخبر، فوجّه إلى الفرّاء فاستدعاه، فلما دخل عليه قال له: (مَن أَعَزَّ النّاس؟) قال: (ما أَعرِف أَحد أَعَزَّ من أمير المؤمنين)، قال: (بلى، مَنْ إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليّا عهد المسلمين، حتى رضي كلٌ واحد ان يقدّم له فرداً)، قال: (يا أمير المؤمنين، لقد أردتُ منعهما من ذلك، ولكن خشيت أن أّدفعهما عن مكرمة سبقا إليها، وأكسِر نفوسهما عن شريفة حرصاً عليها)، قال له المأمون: (لو منعتهما عن ذلك لأوجعتُك لوماً وعتباً، وألزمتك ذنباً، وما وضع ما فعلاه من شرفهما، بل رفع من قدرهما، وبيّن عن جوهرهما، ولقد بينت مخيلة الفِراسة بفعلهما فليس يكبُر الرّجل، وإن كان كبيراً، عن ثلاث: تواضعه لسلطانه، ووالده، ومعّلمه العلم، وقد عوضتهما بما فعلاه عشرين ألف دينار، ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك لهما [١٩].

وللمكانة العلمية السامية التي حظي بها الفرّاء، نال الثناء والتقدير والإعجاب من معاصريه وخالفيه من العلماء والدارسين، وهذا يؤكد علوّ منزلته، ويدلّ على ظهور شخصيته العلمية الفذّة.

وهذه جملة من آراء العلماء فيه:

كان أبو العباس ثعلب يقول: لولا الفرّاء ما كانت عربيّة، لأنّه خلّصها، وضبطها، ولولا الفرّاء لسقطت العربية، لأنها كانت تتنازع ويدّعيها كلّ من أراد، ويتكلم الناس فيها على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب [٢٠].

وقال أبو بكر الأنباري: لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلاّ الكسائيّ والفرّاء، لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس، إذ انتهت العلوم إليهما [٢١].

وقد قيل: الفرّاء أَمير المؤمنين في النّحَّو [٢٢]. قال القفطي: حدّثنا محمد بن سهل الهروي حدّثنا اليمني من كتابه قال: يقول أهل الكوفة: لنا ثلاثة فقهاء في نَسَق لم يرَ الناس مثلهم: أبو حنيفة، وأبو يوسف، ومحمد بن الحسن. ولنا ثلاثة نحويون كذلك: علي بن حمزة الكسائي، وأبو زكريا الفرّاء، وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب [٢٣].

كتبه:

لقد أحصى محققا كتاب (معاني القرآن) للفرّاء (احمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجّار) سبعة عشر كتاباً للفرّاء[٢٤]. وأَوصل أَحمد مكي الأنصاري، في دراسته، عددها إلى تسعة وعشرين كتابا[٢٥]. وفيما يأتي تلك الكتب مرتّبة على حروف الهجاء:

١-آلة الكتاب.

٢-اختلاف اهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف.

٣- الأيام والليالي والشهور.

٤- كتاب (البهاء والبهي).

٥- كتاب التحويل.

٦- كتاب التصريف.

٧- كتاب الجمع والتثنية في القرآن.

٨- كتاب الجمع واللغات.

٩- كتاب الحدود.

١٠- كتاب (حروف المعجم).

١١- الفاخر في الأمثال.

١٢- الكتاب الكبير في النحو.

١٣- كتاب فعل وأفعل.

١٤- كتاب لغات القرآن.

١٥- كتاب ما تلحن فيه العامة

١٦- كتاب مجاز القرآن.

١٧- مختصر النحو.

١٨- المصادر في القرآن.

١٩- معاني القرآن (وسنفصل القول فيه).

٢٠- كتاب المذكر والمؤنث.

٢١- المشكل الصغير.

٢٢- المشكل الكبير.

٢٣- كتاب المقصور والممدود.

٢٤- كتاب ملازم.
٢٥- كتاب النوادر.
٢٦- كتاب الهاء.
٢٧- كتاب الواو.
٢٨- كتاب (الوقف والابتداء).
٢٩- كتاب يافع ويافعة.

ولم يصلْ إلينا من هذه الكتب إلاّ أربعة، هي: (كتاب الأيام والليالي والشهور)، و(المذكر والمؤنث)، و(المقصور والممدود)، و(معاني القرآن)[٢٦].

وفاته:

توفي الفرّاء في طريق مكة سنة سبع ومئتين وعمره ثلاثُ وستون سنة[٢٧].

تقوّلات على الفرّاء

أناقش في هذا البحث أربع روايات تضمَّنت أقوالاً وأَفعالاً منسوبة إلى الفرّاء، وقد أَثبت التّحقيق بطلانها وبراءة أَبي زكريا منها.

الرواية الأولى: تزيّد الحامض على الفرّاء

أَورد ياقوت بسنده الرواية الآتية أنبأنا يزيد بن الحسن الكندي، عن أبي منصور الجواليقي، عن المبارك الصيرفي، عن علي بن أحمد الدّهان، عن عبد السلام بن حسن البصري، قال: كتب إلينا أبو الحسن علي بن محمد الشمشاطي من الموصل، قال: قال أبو اسحق بن السري الزَّجَّاج (رحمه الله): دخلت على أبي العباس ثعلب (رحمه الله)، في أيام أبي العباس محمد بن يزيد المبَّرد، وقد أملى شيئاً من (المقتضب)، فسلَّمت عليه وعنده أبو موسى الحامض، وكان يحسدني شديداً، ويجاهرني بالعداوة، وكنت أَلين له، وأَحتمله، لموضع الشيخوخة، فقال لي أبو العباس: (قد حمل إليّ بعض ما أملاه هذا الخلدي فرأيته لا يطوع لسانه بعبارة)، فقلت له: (إنّه لا يشكّ في حسن عبارته إتنان، ولكن سوء رأيك فيه يعيبه عندك)، فقال: (ما رأيته إلاّ أَلكن متغلِّقاً)، فقال أبو موسى: (واللهِ إنّ صاحبكم أَلكن) يعني: سيبويه، فأَحفظني ذلك ثم قال: (بلغني عن الفرّاء أنّه قال: دخلت البصرة فلقيت يونس

وأَصحابه، فسمعتهم يذكرونه بالحفظ والدراية وحسن الفطنة، فأتيته، فإذا هو أَعجم لا يفصح، سمعته يقول لجارية له: (هات ذيك الماء من ذاك الجرة)، فخرجت من عنده ولم أَعد إليه. فقلت له: هذا لا يصحّ عن الفرّاء، وأنت غير مأمون في هذه الحكاية، ولا يعرف أصحاب سيبويه من هذا شيئاً... الخ [٢٨]

الرّد على هذهِ الرواية:

قبل أن نردّ على هذه الرواية، وما فيها مِن افتراء الحامض على الفرَّاء، نلقي الضوء على أبي موسى الحامض فنسأل: من الحامض؟ ولماذا أُطلِق عليه هذا اللقب؟

ونقول: هو أبو موسى سليمان بن محمد بن أحمد، المعروف بـ (الحامض البغدادي)، أحد أئمة النحاة الكوفيين، أخذ عن أبي العباس ثعلب، وخلفه في مقامه، وتصدَّر بعده قيل فيه: أوحد الناس في البيان، والمعرفة بالعربية، واللغة، والشعر، وكان جامعاً بين المذهبين الكوفي والبصري، وكان يتعصب للكوفيين، وكان شرس الأخلاق، ولذا قيل له: (الحامض)[٢٩].

من هذه الترجمة المختصرة لسيرة أبي موسى الحامض يتضح لنا ما يأتي:

(أولاً): أنّه أخذ عن أبي العباس ثعلب، فهو شيخُه، ومنزلة الشيخ كبيرة عند تلميذه، ولو عدنا إلى لقبه (الحامض) وما نصَّت عليه كتب التراجم من أنه لقّبَ به لشراسة طبعهِ وأخلاقهِ فهل من الممكن أن نصدق برواية يرويها عن الفرّاء وهو بهذه الطباع والأخلاق؟!، لا يمكننا أن نصدّق بهذا الادعاء أَبداً لسببين:

(الأول): أنّ الفرّاء، بما عُرف عنه، رجل ذو أخلاق فاضلة وسجايا حميدة ومنزلة رفيعة، فلا نصّدق قطعاً أن يصدر عن هذا الرجل العالم الفاضل مثل ذلك الكلام.

(والثاني): لم يَرِد في كتب التراجم شيء عن علاقة الفرّاء بسيبويه، أو أنّه أخذ عنه، وأكبر دليل على ذلك أنّه لم يرد اسم سيبويه ولا اسم الكتاب في معاني الفرّاء.

(ثانياً): أنّ الحامض متعصّب للكوفيين جداً، وسيء الأخلاق أيضاً، فلا عجب أن تدفعه عصبيته وسوء أخلاقه إلى اختلاق ما رواه عن الفرّاء.

(ثالثاً): ردّ الزَّجَّاج على الحامض بقوله: أَنت غير مأمون في هذه الحكاية ، وهذا مما يؤكد قولنا آنفاً إنّه شخص لا يمكن أن يؤخذ بكلامه، وعليه فإنّ الفرّاء بريء ممّا نسبه الحامض إليه.

الرواية الثانية: (المناظرة الزنبورية)

أورد أبو بكر الزبيدي، في طبقاته، المناظرة المسمّاة بـ(الزنبورية)، التي قيل إنّها جرت بين سيبويه والكسائي، على ثلاث صور:

الصورة الأولى:

قال الزبيدي: حكى أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحّاس النحوي المصرّي قال: قال أحمد بن يحيى ثعلب ومحمد بن يزيد المبّرد: لمّا ورد سيبويه العراق شقّ أمرُهُ على الكسائي، فأتى جعفر بن يحيى بن برمك والفضل بن يحيى بن برمك وقال: (أنا وليّكما وصاحبكُما وهذا الرجل إنّما قدم ليُذهب محلّي)، قالا: (فاحتَلْ لنفسك، فإنَّا سنجمع بينكما)، فجُمعا عند البرامكة، وحضر سيبويه وحده، وحضر الكسائيّ ومعه الفرّاء والأحمر وغيرهما من أصحابه، فسألوه: كيف تقول: (كنت أظنّ العقرب...) [٣٠].

الصورة الثانية:

أما الرواية الثانية فقد أَوردها الزبيدي على الصورة الآتية، قال: روى هذهِ الحكاية الأوراجيُّ الكاتب بأتمِّ من هذا، وإنا مجتلبهُا على حسب ما روى، قال: حدّثني أَبو جعفر أحمد بن محمد بن رستم الطبّري قال: حدّثني أبو عثمان المازنيّ قال: حدّثني أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش: أنّ أبا بشر عمرو بن عثمان بن قنْبر سيبويه لمّا قَدِم على أبي عليّ يحيى بن خالد بن برمْك، سأله عن خبَره والحال التي ورد لها، فقال: (جئتُ لتجمع بيني وبين الكسائي)، فقال له: (لا تفعل، فإنّه شيخ مدينة السلام وقارئها، ومؤدِّب ولد أمير المؤمنين، وكلُّ مَنْ في المِصر له ومعه)، فأبى إلاَّ أن يجمع بينهما، فعرَّف الرشيد خبره، فأمر بالجمع بينهما، فوعده بيوم، فلمّا كان ذلك اليوم، غدا إلى دار الرشيد، فوجد الفرّاء والأحمر وهشام بن معاوية ومحمد بن سعدان قد سبقوه فسأله الأحمرُ عن مئة مسألة فأجابه عنها، فما أَجابه بجواب إلا قال: (أَخطأت يا بَصْريّ)، فوجم لذلك سيبويه: ووافى الكسائيّ ومعه خلْق من العرب، فلمّا جلس قال له: (يا بَصْريّ كيف تقول: (خرجتُ فإذا زيدُ قائمٌ)؟)، فقال: (خرجت فإذا زيد قائم)، فقال له: أَيجوز: (فإذا زيد قائماً)؟، فقال: (لا) [٣١].

الصورة الثالثة:

أَوردها الزبيدي عن الفرَّاء، قال: أَحمد بن يحيى قال: حدّثني سلمة قال الفرّاء: قدم سيبويه على البرامكة، فعزم يحيى بن خالد على الجمع بينه وبين الكسائي، فجعل لذلك

يوماً، فلمّا حضر تقدَّمت أَنا والأحمر، فدخلنا، فإذا بمثال في صدر المجلس، فقعد عليه يحيى بن خالد، وقعد إلى جانب المثال جعفر والفضل ومَنْ حضر بحضورهم، وحضر سيبويه، فأقبل عليه الأحمر فسأله عن مسألة، فأجاب فيها سيبويه، فقال له: (أخطأت)، ثم عن ثانية فأجابه، فقال: (أَخطأت)، ثم سأله عن ثالثة فقال: (أَخطأت)، فقال سيبويه: (هذا سوء أدب). قال فأقبلت عليه فقلت: إنّ في هذا الرجل جِدّاً وعجلة،ولكن ما تقول فيمن قال: (هؤلاء أيُون) و(مررت بأبيّين)؟، وكيف تقول على مثال ذلك من (وأيت أو أويت)؟، فقدَّر، وأخطأ، فقلت له: (أعد النَّظر)، فقدَّر فأخطأ، فقلت: (اعد النظر)، فقدَّر فأخطأ، فقلت: (أعِد النظر) ثلاث مرات، يجيب ولا يصيب، فلما كَثُر ذلك عليه قال: (لستُ أكلِّمكما أو يحضر صاحبكما حتى أناظره).

قال: (فحضَر الكسائيّ، فأقبل على سيبويه فقال: (تسألني أو أسألك؟)، فقال: (لا، بل تسأَلُني أنت)، فأقبل عليه الكسائيّ فقال: (ما تقول، أو كيف تقول: (قد كنتُ أظنُّ العقرب أشدَّ لسعة من الزُّنبور فإذا هو هي؟[٣٢] .

الرَّد على هذه الرواية:

هذا الكلام الذي ورد في الرواية بصورها الثلاث نصَّ على أنَّ الفرّاء كان حاضراً في مقدّمة أصحاب الكسائي، وأنّه سَمِع المسائل المئة التي سأل بها الأحمر سيبويه، أَو أَلقاها الأحمر على سيبويه، وخطَّأه بأَجوبتها، وقد كان الفرّاء جالساً يسمع، ولا ننسى هذا العدد من المسائل، وهو (المئة)، فلقد تكرّر في مناظرة الأخفش للكسائي حين جاء ليناظرهُ بعد وفاة سيبويه، (مئتا) مسألة وزيادة يسمعها الفرَّاء تلقى أَمامه، ويجيب عنها سيبويه، (مئة) من الأحمر، و(مئة) من الأخفش، فما بالهُ لا يذكر عدداً من تلك المسائل في معانيه وهو يعالج القضايا النحوية واللغوية والصرفية؟ فلماذا لم يذكر شيئاً منها وهي أَصل الخلاف بين الكوفيين والبصريين؟ إنّ هذه الرواية محض اختلاف، والفرّاء لو كان سَمِع ذلك الكمّ من المسائل لذكره في كتابه (معاني القرآن)، فضلاً عن أَنّه لم يذكر أيَّ شيء عن سيبويه أو كتابه، أَو ماله صلة به وبكتابه وممّا يقوّي رفض المناظرة الزنبورية، ومسألتها الرئيسية التي أُختلف فيها بين: (فإذا هو هي) و(فإذا هو إياها)، أنّ أَبا زكريا لم يتناول في معانيه إعراب آية فيها ما يشبه المسألة السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾[٣٣]، فلم يتناول

تفسيرها ولا إعرابها[٣٤]، بل تجاوزها إلى ما بعدها، وهذا يؤكد أَنّ المناظرة لو كانت حاصلة، وكان حاضرَها، لأعربَ الآية.

الرواية الثالثة: (نقض الرواية التي تنصّ على أنّ الفرّاء اعتمد في تأليف معانيه على معاني الأخفش والكسائي)

بعد انتهاء المناظرة المشكوك فيها، التي جرت بين سيبويه والكسائي في بغداد، والتي أخفق فيها سيبويه، توجه سيبويه إلى البصرة، قال الأخفش: فلمَّا دخل إلى شاطئ البصرة[٣٥]، وجَّه إليَّ فجئتُه، فعرَّفني خبرَه مع البغداديّ، وودَّعني ومضى إلى الأهواز، وتزوّدتُ وجلستُ في سُمَارية[٣٦] حتى وردت بغداد، فوافيت مسجد الكِسائيّ فصلّيتُ خلفه الغداة، فلما انفتل من صلاته، وقَعَد في محرابِهِ وبين يديه الفرّاء والأحمر وهشام وبن سَعْدان، سألتهُ عن مئة مسألة، فأجاب عنها بجوابات خطَّأته في جميعها، وأراد أَصحابه الوثوب عليّ فمنعهم من ذلك، ولم يقطعْني ما رأيتُهم عليه ممّا كنتُ فيه. فلما فرغت من مئة مسألة قال الكسائيُّ: بالله أَأَنت أَبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش؟ قلت: نَعمْ، فقام إليَّ وعانقني وأَجلسني إلى جانبه، ثم قال لي: أولادي أحبُّ أن يتأدَّبوا بك، ويخرَّجوا على يدك، وتكون معي غير مفارِق لي، سألني ذلك فأَجبتُه، فلما اتصلت الأيام بالاجتماع سألني أن أؤلفَ له كتاباً في (معاني القرآن)، فألَّفت كتابي في المعاني، فجعله اماماً لنفسه، وعمل عليه كتاباً في المعاني، وعمل الفرّاء كتابه في المعاني عليهما [٣٧].

الرّد على هذه الرواية:

هذه الرواية غير صحيحة، لأنّها تتعارض تماماً مع ما تواترت به الأخبار عن سبب تأليف الكتاب (معاني القرآن)، فلا يمكن أن نأخذ بهذهِ الرواية، إذ هي أقرب إلى الوضع والتلفيق، فقد سبق أن أوردنا في سبب التأليف وطريقته أَنّ ابا العباس ثعلب أحمد بن يحيى قال: وكان السبب في إملاء الفرَّاء كتابه في القرآن، وهو كتاب لم يعمل قبله ولا بعده مثله، ولم يتهيَّأ لأحد من الناس جميعاً أن يزيد عليه شيئاً، أنّ عمر أبن بكير، وكان من أصحابه، وكان مع الحسن بن سهل، كتب إليه: إنّ الأمير الحسن لا يزالُ يسألني عن أشياء من القرآن لا يحضُرُني جوابٌ عنها، فإنْ رأيت أن تجْمعَ لي اصولاً، أو تجعل في ذلك كتاباً نرجع إليه، فعلت. فلمّا قرأ الكتاب قال لأصحابه: اجتمعوا حتّى أملَّ عليكم كتاباً في القرآن، وجعل لهم يوماً، فلما حَضروا خرج إليهم وكان في المسجد رجل يؤذِّن فيه، وكان من القُرّاء،

فقال له: (إقرأ)، فبدأ بفاتحة الكتاب ففسَّرها، ثم مرَّ في الكتاب كلَّه على ذلك، يقرأ الرجل ويفسِّرُ الفرّاء، وكتابه في القرآن نحوٌ من ألف ورقة [٣٨].

ومما يؤيد ويؤكد صحة هذه الرواية ما ورد بالسند عن ابن الجهم قال: حدّثنا أبو منصور نَصر مَوْلَى أحمد بن رُسْتهَ، قال: حدّثنا أبو الفضل يعقوب بن يوسف بن معقِل النيسابوري، سنة إحدى وسبعين ومائتين، قال: سمعت أبَا عبد الله محمد بن الجهم بن هارون السَمَّري، سنة ثمان وستين ومائتين، قال: الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وبارك وسلَّم على محمد خاتم النبيين وعلى آله وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وإيَّاه نسأل التوفيق والصواب، وحسن الثواب، والعِصمة من الخطايا والزَّلَل في القول والعمل. قال: هذا كتابٌ فيه معاني القرآن، أملاه علينا أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء –يرحمه الله– عن حفظه من غير نسخة، في مجلسهِ اوّلَ النهار، من أيام الثّلاثاوات والجُمَع في شهر رمضان، وما بعده من سنة اثنتين، وفي شهور سنة ثلاث، وشهور من سنة أربع ومائتين [٣٩].

فهاتانِ الروايتان تنقضان وتنفيان نفياً قاطعاً ما جاء في الرواية الثالثة من أن الفرّاء اعتمد في تأليف معانيه على (معاني القرآن) للأخفش و(معاني القرآن) للكسائي، فضلاً عمّا ذكره ابن الجهم، عن طريقة الفرّاء في إملاء معانيه، قال: عن حفظه من غير نسخة أي: من دون الاعتماد على مصدر أو أي كتاب أثناء إملائه معانيه.

الرواية الرابعة: (الفرَّاء وكتاب سيبويه)

قال القفطي: قال الجاحظ: قدِمتُ بغداد قَدْمةً، ولم يكن معي شيء أُهديه إلى محمد بن عبد الملك الزَيَّات، فلما خرجت من السفينة سمعتُ منادياً ينادي: من أراد أن يحضر بيع كتب الفرَّاء فليحضر، فقلت: لأذهبنّ لعلّي أن أشتري كتاباً فأهديه إليه، فحضرت فلم أجد في كتبه شيئاً أَستحسنه، فلمَّاَ بيْعَتْ كتبه رُفِعَ فراشُهُ الذي كان ينام عليهِ لِيُباعَ، وُجد تحت وسادته (كتاب سيبويه)، فنودي عليه، فبالَغتُ فيه واشتريتهُ وأهديته إلى محمد بن عبد الملك الزيَّات، فسُرَّ به. وقال: شهدَ الكتابُ عندي على مقدار سيبويه، ودلنَّي على فضلهِ الفرّاءُ إذْ نظر فيه، ولم يعلم محمّد أنّ الفرّاء لم ينتفع بالنَّظر في هذا الكتاب كبير نفع، لأنّه لم ينظر فيه نظر ناصح لنفسه، ولا شاكرٍ لمن وصل إليه العلمُ من جهته، ولا معترفٍ بالحقّ فيه، ولا صادقٍ في روايته عنه ما أخذ منه، فإنّه سرَق بعضاً وادّعاه لنفسه، وستر حقّ صاحبه فلم يشكرْه، ونقل عنه مسائل وعَزَاها إلى الخليل [٤٠].

الرَّدُّ على هذه الرواية:

١- في الرواية السابقة أمور غريبة تثير الدهشة والاستغراب، أوّلهَا قدوم الجاحظ من البصرة إلى بغداد لزيارة محمد بن عبد الملك الزيّات الوزير، فلو فرضنا أنّ الجاحظ قد زاره في وزارته الأولى سنة (٢٢٥هـ)[٤١]، يكون الفرق بين وفاة الفرّاء ووزارة ابن الزيّات الأولى (١٨) سنة إذ توفي الفرّاء سنة (٢٠٧هـ)، فهل يعقل أو يصدّق أنَّ بيت الفرّاء يبقى مغلقاً كل هذهِ السنين؟!.

٢- تذكر الرواية أنّ الجاحظ حين خرج من الشاطيء في زيارته لابن الزيات، سَمِع منادياً ينادي (مَن أراد أنْ يحضر بيع كتب الفرّاء فليحضر)، وأنّه ذهب إلى بيت الفرّاء ليشتري كتاباً مهماً من كتبه ليُهديه إلى الوزير، لكنّه، كما نُسِبَ إليه، قال: (فلم أجد في كتبه شيئاً أستحسنه حتى بيعت كتبُه كلُّها)، وبعد ذلك رُفِعَ فراشهُ الذي كان ينام عليه ليبُاع، فوجد تحت وسادتهِ كتاب سيبويه، فبالغ فيه حتى اشتراه، وأهداه إلى محمد بن عبد الملك الزّيات فسرَّ به. الأمر الغريب الذي لا يصدّق أنْ تباع كتبه وأثاثهُ بالمزاد العلني وهو من هو في منزلته العلمية والاجتماعية، أَين أهله وأقاربهُ؟!، وأين أصدقاؤه وتلاميذهُ؟، وأين علاقته بالدولة والخلفاء؟، ولماذا يبقى بيته مغلقاً وفراشه ممدوداً على الأَرض كلّ تلك السنين؟، هذا لا يحصل حتى للنكرات من الناس ومن ليس له عقب. ولا أصدقاء ولا منزلة.

٣- وتذكر الرواية أنّ فراش الفرّاء كان ممدوداً على الأرض والوسادةُ عليه، معنى ذلك أن هذا الفراش ظلَّ على هذهِ الحالة ثماني عشرة سنة في أقلّ تقدير، فمن يكون هذا الشخص وما منزلته حتى يظل فراشه على هذه الحالة ثماني عشرة سنة؟!، هذا ليس معقولاً، فما أكثر محبّيه وتلامذته والمقرّبين والمخلصين، والأدهى أنّ الرواية تذكر في آخر المزاد: (رَفْع فراش الفرّاء الممدود على الأرض ليظهر تحته كتاب سيبويه)، هذا الكلام لا يصدّقُه عاقل، ومن نسج هذه الرواية كان متعصباً لصاحب الكتاب، كارِهاً للفرّاء، وغايته أن يحطَّ من شأنه، ونسأل: كيف يستطيع أن ينام أحد مرتاحاً وتحت رأسهِ كتابٌ ضخم الحجم بالخطّ والورق القديمين.

٤- ويؤيد ما قلناه في النقطة السابقة: ما انتهت به الرواية من عبارات الذّمّ والطّعن والتنقّص من الفرّاء، فقد جاء فيها: (ولم يعلم محمد أنّ الفرّاء لم ينتفع بالنظّر في هذا الكتاب

كبير نفعٍ، لأنّه لم ينظر فيه نظر ناصح لنفسه، ولا شاكر لمن وصل إليه العلم من جهته، ولا معترفٍ بالحقّ فيه، ولا صادقٍ في روايته عنه ما أخذ منه، فأنه سرق بعضاً وادّعاه لنفسه، وستر حقّ صاحبه...الخ)، هذهِ عبارات تقطرُ حقداً وكرهاً للفرّاء، فقد وصفته بالغفلة والجحود وعدم الاعتراف بالحق وكذب الرواية والسرقة... الخ.

ويكذب ما جاء في الروايةِ عامةً، وما وردَ في آخرها خاصة، أنّ الفرّاء بريء ممّا اتهمته به الرواية، وأنّه لم يُشر ولو مرّة واحدة في معانيه إلى المسمَّى (سيبويه) وكتابه، فأين ما ذكرته عبارات الرواية الأخيرة، وفضلاً عن ذلك إنّنا نرفض ما ورد في الرواية من طعن على الفرّاء على لسان الجاحظ.

خاتمة البحث ونتائجه

توصلت في بحثي هذا إلى النتائج الآتية:

١- تفنيد ما زعمه أبو موسى الحامض على لسان الفرَّاء من أَنَّ سيبويه أعجم لا يفصح، سمعته يقول لجارية له: (هات ذيك الماء من ذاك الجرّة) .

٢- رفض ما جاء في الرواية (الزنبورية) من أَنَّ الفرّاء سَمع (مئة) مسألة من مسائل البصريين وكذلك (مئة) مسألة في مناظرة الأخفش للكسائي، فلو كان سَمع ذلك الكمّ من المسائل لذكر شيئاً منها في كتابه (معاني القرآن).

٣- نقض الرواية التي تنص على أَنَّ الفرّاء اعتمد في تأليف معانيه على معاني الأخفش والكسائي.

٤- رفض ما ذكرته رواية الجاحظ من أَنَّ الفرّاء مات وتحت فراشهِ كتاب سيبويه.

الهوامش

(١) ينظر: مراتب النحويين ١٣٩، وطبقات النحويين واللغويين ١٣١، ونزهة الألباء ٦٥، ومعجم الأدباء ٢٧٦/٧، وإنباه الرواة ١/٤-١٧، وبغية الوعاة ٣٣٣/٢، وأبو زكريا الفرّاء ومذهبه في النحو.

(٢) ينظر: الأنساب ٣٥٢/٤، ووفيات الأعيان ١٨١/٦، واللباب في تهذيب الأنساب ٤١٤/٢.

[٣] ينظر: لسان العرب (فرا).
[٤] الأضداد ١٥٩.
[٥] ينظر: أبو زكريا الفرّاء ٥٠.
[٦] معاني الفرّاء ٤٥/٣
[٧] معجم الأدباء ٢٧٦/٧.
[٨] أنباه الرواة ٧/٤.
[٩] بغية الوعاة ٣٣٣/٢.
[١٠] تهذيب اللغة ١٩/١.
[١١] أبو زكريا الفرّاء ٧٢.
[١٢] ينظر: ضحى الإسلام ٣٠٧/٢.
[١٣] ينظر: المعتزلة ٢٣٢.
[١٤] ينظر: أبو زكريا الفرّاء ٧٢-٧٣.
[١٥] ينظر: أبو زكريا الفرّاء ٧٢-٧٣.
[١٦] ينظر: إنباه الرواة ١/٤-١٠.
[١٧] معجم الأدباء ٢٧٦/٧-٢٧٧، وينظر: إنباه الرواة ١٢/٤-١٣.
[١٨] معجم الأدباء ٢٧٧/٧.
[١٩] إنباه الرواة ١١/٤-١٢.
[٢٠] الأنساب ٣٥٢/٤، وينظر: تاريخ بغداد ١٥٥/١٤، ومعجم الأدباء ٢٧٦/٧، وإنباه الرواة ٣/٤.
[٢١] معجم الأدباء ٢٧٨/٧.
[٢٢] معجم الأدباء ٢٧٨/٧.
[٢٣] أنباه الرواة ٥/٤.
[٢٤] ينظر: معاني القرآن، مقدمة التحقيق ١١.
[٢٥] ينظر: ابو زكريا الفراء ١٧٠-٢٠٤.
[٢٦] ينظر: أبو زكريا الفرّاء ٢٠٥-٢٦٧.

[٢٧] ينظر: مراتب النحويين ١٤١,و طبقات النحويين واللغويين ١٣٣,و تاريخ بغداد ١٤/١٥٥, و نزهة الالباء ٦٨, وكتاب الثقات ٩/٢٥٦.

[٢٨] معجم الأدباء ١/٥١.

[٢٩] ينظر: معجم الأدباء ٤/٢٥٤.

[٣٠] طبقات النحويين واللغويين ٦٨.

[٣١] طبقات النحويين واللغويين ٦٩.

[٣٢] طبقات النحويين واللغويين ٧٠.

[٣٣] سورة طه ٢٠.

[٣٤] ينظر: معاني الفرّاء ٢/١٧٧.

[٣٥] يبدو أنّ سيبويه رجع إلى البصرة عن طريق النهر، وإلاّ فما علاقة شاطيء البصرة بوصوله؟.

[٣٦] كما يبدو هي نوع من السفن للنقل النهري.

[٣٧] طبقات النحويين واللغويين ٧٠.

[٣٨] طبقات النحويين واللغويين ١٣٢-١٣٣، وينظر: إنباه الرواة ٤/٤.

[٣٩] معاني الفرّاء ١/١

[٤٠] إنباه الرواة ٤/٨-٩.

[٤١] ينظر: معجم الأنساب والأسر الحاكمة ٦.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

(أ)

- أبو زكريا الفرّاء ومذهبه في النحو واللغة، تأليف: الدكتور أحمد مكي الأنصاري، القاهرة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

- الأضداد، للأنباري (محمد بن القاسم ت٣٢٨هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، ١٩٦٠م.
- أنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي (جمال الدين علي بن يوسف ت ٦٤٦هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج١ ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م، ج٢ ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م، ج٣ ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م، ج٤ ١٩٧٣.
- الأنساب، للسمعاني (ت٥٦٢هـ)، تقديم وتعليق: عبد الله عمر البارودي، دار الجنان، بيروت– لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(ب)

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحّاة، للسيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ت٩١١هـ). تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، ١٩٦٥م.

(ت)

- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (أبي بكر أحمد بن علي ت٤٦٣هـ)، دار الفكر للطباعة (د.ت).
- تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري (محمد بن أحمد ت٣٧٠هـ)، حققه وقدم له: عبد السلام محمد هارون، راجعه: محمد علي النجّار، دار القومية العربية للطباعة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

(ث)

- الثقات، للإمام الحافظ التميمي البستي (محمد بن حبان ت٣٥٤هـ)، دار الفكر، ط١، ١٩٨٣م.

(ط)

- طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن ت٣٧٩هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١١١٩هـ/ ١٩٧٣م.

(ض)

- ضحى الإسلام، أحمد أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،

(ل)

- اللباب في تهذيب الأنساب، للجزري (عز الدين بن الأثير ت٦٣٠هـ)، مكتبة المثنى، بغداد.

- لسان العرب، لأبن منظور (ت٧١١هـ)، طبعة مصّورة عن طبعة بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة (د.ت).

(م)

- مراتب النحويين، لأبي الطيب اللغوي (ت٣٥١هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٥م.
- معاني القرآن، للفرَّاء (أبي زكريا يحيى بن زياد ت٢٠٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجّار، ج١، مطبعة دار الكتب المصرية، ط١، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م. ج٢، الدار المصرية للتأليف والترجمة. ج٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م.
- المعتزلة، تأليف: زهدي حسن جار الله، القاهرة، ط١، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.
- (معجم الأدباء) المعروف بـ(إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، لياقوت الحموي (شهاب الدين بن عبد الله ت٦٢٦هـ)، مطبعة هندية، ط٢، مصر ج١ ١٩٢٣، ج٢ ١٩٢٤، ج٣، ج٤ ١٩٢٧، ج٦ ١٩٣٠.
- معجم الأنساب والأسر الحاكمة، للمستشرق زامباور، الدكتور: زكي محمد حسن، ود.سيّدة إسماعيل كاشف، دار الرائد العربي، بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(ن)

- نزهة الألباء، لأبي البركات الأنباري (ت٥٧٧هـ)، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٥٩م.

(و)

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبن خلكان (أبي العباس شمس الدين أحمد ت٦٨١هـ)، تحقيق: د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت/لبنان (د.ت).